

من أسلمة الأدب العربي إلى إنشاء أدب إسلامي

بقلم / أنور الجندبي

في مطالع القرن الخامس عشر الهجري وقد أضاعت أضواء كثيرة، ونبت قلاع جديدة للأصالة، والعودة إلى المنابع، منها قلعة علم النفس الإسلامي، وعلم الاجتماع الإسلامي، وعلم الأخلاق الإسلامي، وعلم التربية الإسلامي، كان لا بد أن تتحقق خطط الدعوة إلى الأصالة التي قامت منذ منتصف القرن الرابع عشر لتحرير الأدب العربي من تبعيته للمناهج الوافدة، سواء في كتابة تاريخه، أو في أساليب النقد.

ولقد كانت المذاهب الأدبية الغربية (وهي الثوب الأدبي للفلسفات والعقائد الغربية) قد أغرت أولئك الأدباء والنقاد، وشدتهم ببياناتها ومبادئها، وجعلتهم يعتقدون أنها تقدم النموذج المثالي للأدب الإنساني الرفيع، ولم تكن المبادئ والصفات التي تحملها المذاهب الأدبية الغربية محصورة في الأدوات الفنية وقضايا فكرية وعقدية خطيرة. فالأعمال التي تنتمي إلى الواقعية الاشتراكية مغموسة بالماركسية، تحمل مبادئها وقضاياها بشكل مباشر أو غير مباشر، والأعمال الأدبية التي تنتمي إلى الوجودية تجند كل طاقاتها الفنية المؤثرة لززع القضايا الوجودية، كالقلق والاغتراب، ورفض الغيبات، وفصل الإنسان عن العقائد السماوية.

ومن هنا كان لا بد من تمييز واضح بين مفهوم الأدب الإسلامي ومفهوم الآداب الغربية.

أما المذاهب الأدبية الغربية فإنها كلها بلا استثناء تحالف مزاجنا النفسي وعقيدتنا وقيمنا، وحين تتصل بها فنحن يجب أن نكون واعين لوجوه الاختلاف والآثار المعارضة، ذلك أن المذاهب الأدبية مرتبطة دائماً بالبيئة والعقيدة، وكلا المذهبين (الكلاسيكية والرومانسية) مرتبط بالدين والتحويلات في بيئة الغرب، فالكلاسيكية فلسفة تمجد العقل، والرومانسية ثورة على العقل وتمجد العاطفة، وهذه الثورة تشمل الأعراف والمبادئ والأخلاق، والإسلام يتصادم مع هذه المذاهب من حيث إنها تستند إلى فلسفات تعارض المفاهيم الإسلامية.

فالأولى وثنية، والثانية مسيحية، وبالحملة فإن المذاهب الأدبية الغربية مرتبطة بفلسفات مادية، ونحن لا نرفض العقل، ولا نرفض العاطفة، والشعر العربي بالعقل والعاطفة زاخر، وما نرفضه وما يتصادم مع الفكر الإسلامي هو أنه يوجه العقل والعاطفة إلى فلسفة معينة.

ومن ثم فإن علينا أن نكون واعين بما وراء هذه النظريات الأدبية من مذاهب غربية تقوم جميعها على المادية الجدلية والتفسير المادي للتاريخ، وقد عرض طيب الذكر الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا في

لقد دخلت الدعوة الإسلامية مرحلة جديدة متقدمة على سابقتها في مجال التنظير والتقنين للفكر الإسلامي، في إطار الأعمال الكبرى القائمة من أجل التماس المنابع مع الوعي القومي لإيقاع العصر، حيث بدأت تلك التجارب في الميادين المختلفة تشق طريقها، ومن هنا كان لا بد من التحرك من أجل إنشاء ما تسميته المدرسة الإسلامية في الأدب، وقد مر الأدب بمرحلتين: مرحلة التصحيح للأدب العربي وإخراجه من التبعية، ومواجهة التحديات التي حاصرتها خلال القرن الماضي، عندما فرض عليه الاستشراق مذاهب الغرب في النقد والتاريخ، وقد قطعت حركة تحرير الأدب العربي من التبعية شوطاً طويلاً، وكان من الضروري أن تتقدم إلى مرحلة جديدة لإنشاء دعائم وأسس الأدب الإسلامي، وتختلف مرحلة تصحيح الأدب وتحريره التي سبقت، والتي شارك فيها كثيرون عن مرحلة إنشاء الأدب الإسلامي، وهي مرحلة إبداعية في المقام الأول - إن صح هذا التعبير - وفارق كبير وعميق بين أسلمة الأدب العربي وبين إنشاء أدب إسلامي أصيل من نقطة البدء، بعدما تقطعت الأوصال فترة من الزمن.

ويمكن القول بأن تلك المغالاة في انحياز الأدب العربي المعاصر إلى التبعية والتغريب كانت عاملاً أساسياً في الدعوة إلى إنشاء نظرية الأدب الإسلامي، كوسيلة أساسية للتحرر من هذه التبعية والخروج من دائرة الحصار.

تأثير كبير:

يقول الدكتور عبدالباسط بدر: امتدت آثار الأدب في العصر الحديث إلى المجتمعات الإسلامية، وأخذت تنشر سمومها وانحرافات في طوفان من القصص والمسرحيات والقصائد العربية وكتب النقد التي تأثرت بهذا الطوفان. والمعروف أن الأدب في العصر الحديث يقوم بوظيفة أساسية في خدمة الفلسفات والعقائد الغربية المختلفة، وقد ظهرت نتيجة ذلك عند عدد من الأدباء والنقاد يحملون الهوية الإسلامية، ويتمون بفكرهم وعواطفهم إلى تلك الفلسفات والعقائد، ويتحولون إلى دعاة لها بقصد أو دون قصد.



عبد الرحمن رأفت الباشا

كتابه القيم «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد» موقف الإسلام من المذاهب الأدبية في الغرب فأشار إلى أن موقفنا الإسلامي تجاه هذه المذاهب هو الالتزام الإسلامي فالكلاسيكية استنبطت من أدب اليونان والرومان بوثنيتها التي جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها والقضاء عليها، والإسلام يرفض كل ما يحاد الله ورسوله وما يحارب الإسلام.

وإذا كان الكلاسيكيون يقصرون أعمالهم الأدبية على الجوانب المادية من حياة الإنسان بينما لا تخطى الجوانب الروحية وما فيها من تألق وصفاء بشيء من اهتمامهم، وإذا كان الأدب الإسلامي يعطي الحياة المادية حقها كما يعطي الروح حقها أيضاً، وضح أن ما بين الإسلام والكلاسيكية تناقض واضح وتباين كبير، وهذا التناقض بينه وبين الرومانسية أكبر وأعظم، كذلك فإن دعاة الوثنية الذين يستكبرون الكلاسيكية التي تنبض بالروح الوثنية لا يريدون أن ينتقلوا منها إلى الرومانسية التي تنبض بالروح المسيحية، وإذا كان الأدب الرومانسي بني على تحرير الأدب من قيود العقل والواقعية، ثم الانطلاق في رحاب الخيال المجنح، فإن الأدب الإسلامي أدب واقعي يجره جوادان اثنان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر: هما جواد العاطفة وجواد العقل. ثم إن الرومانسية تدّين بأن الغاية من الأدب هي المتعة، أما الأدب الإسلامي فلا بد أن تتوافر فيه الفائدة العملية والمتعة النفسية؛ بحيث يكون نافعاً وممتعاً في وقت واحد، كذلك فإن نظرية الواقعية تختلف مع مفهوم الأدب الإسلامي: ذلك أن الواقعيين على اختلاف اتجاهاتهم يدينون بأنه ((لا إله، والحياة مادة)) ولا يؤمنون بما وراء الطبيعة، والأدب الإسلامي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدّين بأن الطبيعة وما فيها ومن فيها إنما هي مخلوقات الله سبحانه، وأنه رب السموات والأرض ورب العرش العظيم.

قاعدة أساسية:

ولكي نصل إلى مفهوم الأدب الإسلامي الذي نضع قاعدة الأساس له يجب أن نعالج واقع الأدب العربي ونكشف عن التحديات التي تواجهه.

موقفنا تجاه المذاهب الوافدة هو الالتزام الإسلامي

تحديات التغريب في مواجهة أصالة الأدب العربي:

يواجه الأدب العربي في الوقت الحاضر مجموعة من التحديات الخطيرة التي تحتاج إلى دراسة ومراجعة، وتتطلب العمل على فتح الطريق إلى بناء منهج عربي إسلامي، في كتابة تاريخ الأدب العربي ونقده، خاصة أن المنهج الغربي الوافد ما زال مسيطراً على الدراسات الأدبية في الجامعات والمعاهد وكليات الآداب واللغة العربية في أرجاء كثيرة من بلادنا العربية والإسلامية.

واعتقد أننا منذ دخول القرن الخامس عشر الهجري قد دخلنا إلى عصر الأصالة، والرشد الفكري، الذي يدعونا إلى التحرر من الخضوع للمناهج الوافدة، وخاصة بالنسبة للأدب العربي واللغة العربية الفصحى (لغة القرآن) رغبة في تحرير الفكر الإسلامي كله من المناهج الوافدة والتي فرضها التغريب والغزو الثقافي.

ولا ريب أن مهمتنا في هذه المرحلة من حياة أمتنا هي التعرف على ذاتنا، ومزاجنا النفسي، وطابع أمتنا، وأدبنا، وإبراز ذلك واضحاً أمام الأجيال الجديدة لتكون قادرة على شق طريقها في وسط هذا الركام من المذاهب والدعوات ومحاولات التغريب، والغزو الثقافي،

النظريات الأدبية الوافدة لا

تناسب مع خصوصيتنا

والتحرر من التبعية للغرب في شتى صوره، وامتلاك الإدارة القادرة على ربط أدبنا العربي بالقرآن الكريم والسنة النبوية؛ ليكون ذلك منطلقاً إلى تبليغ الإسلام للعالمين.

وهذا كله يدعونا إلى إلقاء الضوء على:

فساد نظريات النقد الأدبي الوافدة:

أخطر ما أصاب الأدب العربي المعاصر أنه وقع تحت تأثير المذاهب الأدبية الغربية فاحتوته في مجالين كبيرين: مجال تاريخ الأدب، ومجال نقد الأدب.

فخضع لهذه المذاهب الوافدة خضوعاً شديداً، ولقد كان من أسوأ تحديات التغريب أن جرت المحاولة لعزله عزلاً تاماً عن مجرى الأدب العربي منذ عصر الإسلام تحت اسم جديد وتيار جديد، وبدأت الكتابات الأدبية كلها وكأنها منفصلة انفصالاً تاماً عن الحلقات المتتابعة للأدب العربي، بل إن الكتابات التي قدمها بعض الأدباء المتأثرين بالمذاهب الغربية بدت وكأنها منفصلة تماماً كدراسات أبي العلاء المعري، والمتنبي، وابن الرومي، وغيرها، فقد جرت المحاولة لإخضاع الأدب العربي (القديم كما يسمونه) إلى مذاهب غربية كالمذهب التحليلي والمذهب النفسي، وجرى إخضاع هذه الشخصيات وغيرها لهذه المذاهب، مع الاختلاف الواسع



طه حسين

والكشف عن جوانب الصراع والعلاقات الشاذة في المجتمع الغربي، ومن ثم حفلت الكتابات الأدبية بالاستخفاف بالقيم الدينية والأخلاقية، والغمز لكل ما يتصل بالعقيدة، والسخرية بالفضائل، والبطولات، والجرأة على المقدسات.

وانتهى هذا الانتاج

الخطيء إلى بروز أسلوب الشك، واستعلاء هذه الدعوى واستثرائها في أسلوب مآكر من أساليب الغزو الثقافي، يراد بها وضع علامات استفهام متعددة أمام الشباب دون أن تجد إجابة صحيحة تهدي قلبه الغض، أو ترضي نفسه البسيطة، بل إن الدكتور طه حسين قد فاخر يوماً بأن أخضع للشك بعض المعتقدات التي ورد ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول.

ولقد كان من أخطر الآثار التي ترتبت على سيطرة المنهج الغربي الوافد على الأدب العربي: ضعف أصالة البحث، والتخلف عن المصادر الأصلية، والاعتماد على المصادر الزائفة، من كتب المحاضرات، وما سجله الرواة والقصاصون من أخبار، من أجل ترويج آراء كاذبة مضللة، وهي مؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم، ولم تكتب وفق أصول البحث العلمي الذي أبدعه الإسلام، وإنما جمعت للتسلية والترويح، وقصد بها جمع الفكاهات والنكات والأحاديث، والقصاص الكاذب، لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل، ولعل الدكتور طه حسين هو أول من اقتحم هذا المجال حين اعتمد ودعا طلبته في كلية الآداب إلى الاعتماد على كتاب «الأغاني»، كما دعا المستشرقون إلى اتخاذ «ألف ليلة وليلة» مصدراً لدراسة المجتمع الإسلامي، وكذلك «ثمار القلوب» للثعالبي، وهي كتب حافلة بكل فاسد وغث، وليست لها طبيعة المصادر العلمية.

وقد اتصل هذا الانحراف بسيرة الرسول ﷺ عندما طبق طه حسين مذهبه في «الشك الفلسفي» على السيرة، وكتب «على هامش السيرة»، فأدخل فيها عشرات الأساطير التي لم يكن يعرفها العرب من قبل.

ولقد عاش المؤرخون المسلمون يحرقون سيرة النبي ﷺ وينقونها من كل شبهة، حتى جاء طه حسين فأدخل إليها هذا الحشد الضخم من الأساطير والإسرائيليات «تحت عنوان الميثولوجيا الإسلامية» الميثولوجيا أي الخرافة التي خدعت الكثيرين، حتى ظنوا أنها عمل أدبي رائع وإن كانت لم تخف على الباحثين منذ اليوم الأول، وقد وصفها مصطفى صادق الرافعي وصفاً صحيحاً حين قال: «إن هامش السيرة تهكم صريح».

والعميق بين العصور والبيئات، كذلك فقد جرت المحاولات لإحياء شخصيات منكورة، لا وزن لها في تاريخ الأدب الحقيقي، من الصعاليك والزنادقة أمثال أبي نواس وبيشار بن برد والضحاك وحماة عجرد وغيرهم، على أنهم - كما ادعى الغربيون - يمثلون عصرهم أصدق تمثيل!!

وجرى فرض نظريات تين وسانت بيف وبروننير لنقد الأدب العربي وهي نظريات قائمة على الفلسفة المادية المستمدة من نظرية دارون وما بعدها، والتي تنظر إلى الإنسان على أنه حيوان شهوة ومعدة. وهو بالقطع ليس كذلك في مفهوم النقد الإسلامي الذي يعدّ الأدب العربي حلقة من حلقاته، وحبّة من حبات عقده، فقد حاولت مدارس التبشير والاستشراق والتغريب التي فرضت نفسها على الأدب العربي أن تعطي الأدب مجالاً أكبر من حجمه الحقيقي، وتفسح له مكاناً أكبر من طبيعته، فأصبح من حق الأدباء التحدث في مختلف القضايا الاجتماعية والعقائدية، وتقديم وجهات نظر في مجالات لا يحسنونها، وليسوا من فرسانها، كالفقه والشرعة والأخلاق.

كذلك فإن محاولة الدعوة إلى استقلالية الأدب عن الفكر فتحت

لماذا يكثر الغمز ضد كل ما يتصل بعقيدتنا السحرة؟

الباب واسعاً أمام هدم أخلاقية الأدب، وغلبة المفاهيم التي يسمونها الأدب للأدب، والفن للفن، وهي مفاهيم ينكرها الفكر الإسلامي تماماً ويردها رداً غير جميل، فهي تحرق الأدب من طابع الأخلاق وتدفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء من غير ما قيد، وذلك باسم حرية الأدب.

وفي ظل هذه الدعوة اتسع الحديث عن الشعراء الإباحيين، والكتب التي تتصل بآثارهم، أمثال ألف ليلة وليلة، والأغاني، وثمار القلوب للثعالبي.

ولقد كان من أخطر محاولات احتواء العرب والأمة الإسلامية أن فتح المستشرقون عن طريق أتباعهم باباً واسعاً للإباحيات، بالبحث في كتب التراث القديمة بما فيها من فحش وهجاء، وغلو ووصف للبعورات، وغزل بالماضي، راجع إلى ما دخل إلى الأدب العربي من الأدب الفارسي القديم، ومن مترجمات اليونان، فجرى طه حسين وغيره في هذا المجرى، بإعادة إبراز شعر أبي نواس وغيره، وإحياء ما قاله الشعراء العرب، الذين تأثروا بمترجمات الفكر اليوناني، والذين خضعوا لمفاهيم الباطنية، والمذاهب الإباحية، ولم يكن ذلك من صميم الأدب العربي، الذي شكله القرآن والسنة في وجهة أخلاقية، تعلو على التحلل، وجمعوا إلى ذلك تراجم الأدب اليوناني وغيره.

ومن هذه المصادر كتَبَ طه حسين فصول كتابه «حديث الأربعاء». كما انفسح المجال أمام ترجمة القصص الغربية الإباحية،